غموض المصطلح في كتابات محمد السعيد الزّاهري
(بين اليهودية والصهيونية أنموذجا)

ملخص

شاع الكثير من المصطلحات السياسية والدينية والأدبية في كتابات رواد الحركة الوطنية الجزائرية في النصف الأول من القرن العشرين، وهذه المصطلحات مازال الكثير منها في حاجة ماسة إلى وقفات جادة لبيان ماهيتها وأبعادها في سياقها التاريخي والسياسي والاجتماعي الديني ومنها: الصهيونية واليهودية والإسرائيلية التي ترددت في فني الرسالة والمقالة عند محمد السعيد الزاهري.

وتحاول هذه المقالة الموسومة بـ (غموض المصطلح في كتابات محمد السعيد الزّاهري (بين اليهودية والصهيونية أنموذجا) إزالة الغموض الذي اكتنف تلك المصطلحات.

أ . عبد الكريم طبيش
المركز الجامعي – ميلة الجزائر

Abstract

In the first half of the twentieth century, many political, religious and literary terms have been widely popularized in the writings of the Algerian National Movement's pioneers. A lot of these terms remain in need of serious consideration to designate their essence and dimensions in their historical, political and socio-religious context. Such terms include Zionism, Judaism and Israelism that have been frequently repeated in Mohammed El-Saeed El-Zahri'sart of letters and essays. The present articleexplores these terms and conceptsin Mohammed El-Saeed El-Zahri's works (Judaism and Zionism as a model) in order to eliminate the ambiguity that surrounds them.

مقدمة

يرصد هذا البحث بعض نشاطات الصهيونية من خلال فنين من فنون النثر الأدبي الجزائري الحديث، هما: فنا المقال والرسالة، وقد لعب هذان الفنان دورا كبيرا في مقاومة الشعب الجزائري للكثير من الهجمات الشرسة ـ الداخلية والخارجية العربية والإسلامية ـ تعرض لها هذا الشعب، ومنها نشاطات بعض الجمعيات اليهودية في الشمال الإفريقي، والتي تفاعل أعضاؤها مع تصريحات زعماء اليهود في العالم، الداعية إلى ضرورة تخليص أرض الميعاد من أيادي العرب والمسلمين.

وتبشير)،(كانت الطبعة الأولى بـ (المطبعة السلفية) بالقاهرة 1926م، والثانية بـ (مطبعة الاعتدال) بدمشق 1933، والثالثة بـ(دار الكتب) بالجزائر1983 م)[4].

© جامعة قسنطينة 1، الجزائر 2014.

إرهاصات الاهتمام بمشكلة فلسطين لدى رواد الحركة الوطنية

قضية ضياع فلسطين:

نستعرض في مقالنا هذا ما تعرضت له فلسطين من إشكال مع اليهود في القطر الجزائري وذلك قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها بقليل من خلال فكر كل من الزاهري وعمر راسم في مقالين ورسالة تم نشرهما في صحيفة البرق الزاهرية.

نشر المقال الأول بعنوان:(الصهيونية)، في العدد 20، الاثنين 24 جويلية 1927 م. ص 2/1. أما المقال الثاني فكان بعنوان:(أين تذهب أموالنا) وتم نشره في العدد 15، بتاريخ 20 جوان 1927م. ص 1. في حين نشرت الرسالة في العدد 11 جويلية 1927م. ص 3/2. بعنوان:(رسالة مفتوحة إلى المعلم فريدمان رئيس الطائفة اليهودية في الشمال الإفريقي).

تُعدّ جريدة(البرق) الزاهرية التي أشرنا إليها وثيقة تثبت بأن رجال الأدب والفكر في الجزائر كانوا يتابعون أحداث العالم العربي والإسلامي، ويتفاعلون معها بكتاباتهم الشعرية والنثرية على حدّ سواء.

وقد أعلن محمد السعيد الزاهري في فاتحة هذه الجريدة ـ وهو أحد أبرز كتابها ـ أن خطة هذه الرصيفة الأسبوعية تشمل في مقاومتها: المحتل الفرنسي وأعوانه من شيوخ الطرقية وشخصيات جزائرية عميلة، كما صرّح في إحدى نقاط هذه المقدمة أنه يجتهد في أن تكون تلك الجريدة صوتا للأمة العربية والإسلامية. ومن كتاباته في هذه الجريدة المعبرة عن موقف الجزائريين إزاء ما يجري من أحداث عالمية، مقال بعنوان:(الصهيونية)، بين من خلاله الخطر الداهم على الأمة الإسلامية. وقد اعتبره السعيد الزاهري خطرا حقيقيا ورزءا جللا ليس على فلسطين وحدها بل على سائر البلاد الإسلامية.

لقد أدلى السعيد الزاهري بدلوه في قضية الصهيونية قبل الحرب العالمية الأولى، وحذر من وعد بلفور المشئوم، وبذلك يكون ـ في اعتقادنا ـ أول شخصية أدبية جزائرية في تاريخ الحركة الوطنية بعد الشيخ راسم تنبّه إلى أطماع اليهود في العالمين العربي والإسلامي، ولم يسبقه(في هذه المسألة غير الشيخ راسم)[5].

لقد انتقد الأديب السعيد الزاهري عبر جرائد تونس أولا- يوم أن كان طالبا بالزيتونة ـ كل الذين لم يحركوا ساكنا إزاء تصريحات اليهود المناهضة للمسلمين، ومنهم باي تونس. وقد أشار إلى ذلك في مقال بعنوان: الصهيونية، فقال:(وقد انتقدت قبل الحرب على باي تونس، وعلى صحافي تونس الذين نشروا بارتياح وشماتة ما كان يقول الراهب أمام الباي أيام الاحتفالات من الأدعية بإنقاذ وطنه الذي كان تحت سيطرة المسلمين وكان لا يكلمه إلا بالعبرانية)[6]. وكما تدل العبارة السابقة على رجاحة عقل الزاهري المبكرة، وإدراكه المتقدم لأهمية المسائل الكبيرة والمصيرية للأمتين العربية والإسلامية، فهي تدل أيضا على استشرافه لمستقبل القضية الفلسطينية ـ القريب منها

والبعيد ـ في ظل ضعف الشعوب العربية والإسلامية من ناحية، وولاء أغلب قياداتها السياسية والكثير من نخبها المثقفة للمحتل الأوروبي.

ونظرا لتأثر محمد السعيد الزاهري بمواقف عمر راسم فقد أورد في مقدمة المقال فقرة طويلة ـ اقتبسها مما كتبه عمر راسم – ويعتبر آنذاك في مقدمة رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر - في جريدته "ذو الفقار" نقلا عن مجلة "المنار" التي كان يصدرها محمد رشيد رضا مع تعليق على موقف القائمين عليها ـ حول مسألة الصراع المحتدم بين الأمة الإسلامية والفكر اليهودي الصهيوني. ويدل هذا التعليق على نضج مواقف الحركة الوطنية الجزائرية في النصف الأول من القرن العشرين، كما يعتبر النقل الحرفي للفقرة على الأمانة العلمية من ناحية وعلى التطابق التام بين وجهات نظر النخبة الوطنية الجزائرية ومواقفها قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها في قضية صراع الأمة الإسلامية مع اليهود. وما اقتباس محمد السعيد الزاهري في مقاله:(الصهيونية) في سنة 1927م لتعليق عمر راسم حول نظرة المنار سنة 1914م إلا دليل على ما ذهبنا إليه.

وحتى نقف على موقف كل من الأديبين لا بد من العودة إلى مقتطفات من المقال الذي نشرته مجلة المنار.

جاء في مجلة "المنار" العبارة الآتية:(يجب على زعماء العرب أهل البلاد أحد أمرين:إما عقد اتفاق مع زعماء الصهيونية على الجمع بين مصلحة الفريقين في البلاد إن أمكن...)[7].

وكان رد عمر راسم سريعا بقوله:(هذا خطأ فاحش من صاحب "المنار" لأنه يريد أن يرضي الدخلاء بتنازل أهل البلاد إليهم، حتى يعترفوا لهم بالمساواة)[8].

ويستمر عمر راسم في تعليقه بعد عرضه للأمر الثاني برأي منه سياسي حصيف صريح وذلك لخطورة عاقبة الأمة العربية لما دعت إليه مجلة "المنار" من تسامح وتصالح، وإمكانية الاتفاق على الجمع بين مصالح العرب والصهاينة في أرض فلسطين (إن اتفاق زعماء العرب أبناء الفاتحين وأهل البلاد مع زعماء اليهود مستحيل، لأنه اعتراف بزعامة اليهود، ورضا بمشاركة هؤلاء الأجانب في بلاد اشتراها آباؤهم بدمائهم الطاهرة، فلا يحق لغير العرب وهم أبناء إبراهيم الأصفياء الأزكياء الموعودون بتلك البقعة المطهرة، أن يملك تلك الأرض، ولا لغير راية الإسلام أن تخفق عليها ما دام في عروق العرب دم، وفي أجسام المسلمين روح مسلمة، وليعلموا أن أنساق الدولة العثمانية، وانفصال (بلغاريا) و(صربيا) و(طرابلس) وتنازعها الداخلي، كل ذلك مقدمة لاستقلال (فلسطين)، ونتيجة أعمال اليهود بواسطة أوروبا، وهم من جهة ودسائسهم من جهة أخرى. وإن استمر الحال على ما هو عليه بقيت دولة الخلافة تحت سلطة "كارصو"****وهو الذي خلع عبد الحميد. ورئيس حزب الاتحاد يهودي صهيوني وجاويد. و"حقي" بائع طرابلس لأخيه "لوزاتي"، فلا شك أن تقع

الدولة في مخالب اليهود يوما ما، ولا يكفيها حينئذ لنجاتها لا الست مدرعات التي أوصت عليها ولا العشرون. فيجب عليها الانتباه، وعلى أبناء العرب العمل)[9].

لئن كان هذا موقف عمر راسم الصريح والمستغرب لرأي مجلة "المنار" المعبرة عن رأي المسلمين في المشرق العربي، فإن السعيد الزاهري ـ بعد أكثر من عقد كامل من الزمن ـ أعطى صورة أكثر وضوحا لحقيقة ما يجري في الجزائر من نشاطات بعض زعماء اليهود، وحذر من خطورة الوضع، ونجمل ذلك فيما يأتي:

- كل ما أشار إليه عمر راسم وحذر منه قبل الحرب العالمية الأولى، أصبح من المسائل الوقتية، من تظاهر اليهود بمبادئهم صراحة وعلى مرأى ومسمع من الشعوب العربية والإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى وسقوط الخلافة الإسلامية سنة 1924.

- النشاطات المكثفة لليهود عبر تنظيم وعقد الاجتماعات في أوروبا وخاصة فرنسا ومستعمراتها ومنها الجزائر. وتهدف هذه اللقاءات إلى:

- مساندة الحركة الصهيونية ماديا ومعنويا.

- الجرأة في دعوة أبناء إسرائيل إلى الإعانة المالية تحقيقا للمشروع المقدس لليهود، وإظهار راية سليمان.

- إظهار معنويات اليهود العالمية في إمكانية إقامة الوطن الموعود في أرض فلسطين رغم الهلال والصليب.

- إبراز نظرة اليهود للعرب، بأنهم أمة متكاسلة لا تحب العمل. أما اليهود فأمة نشيطة تستولي بنشاطها الفعال على الأرض المقدسة في زمن ليس بالبعيد.

والجميل في هذا المقال:(الصهيونية) هو ما يعبر عن سعة إطلاّع السعيد الزاهري وتواصل نشاطه من أجل تنوير الرأي العام الجزائري بحقيقة الصراع الدائر في أرض الإسراء والمعراج في تلك الفترة.

لقد وعد الأديب الزاهري قراء جريدة(البرق) بأنه سينقل للناس جميعا بعض فصول كتاب مترجم إلى اللغة الفرنسية عثر عليه بنفسه، ليكشف بعض قرارات تلك الجمعية السرية الصهيونية المنعقدة في بال بسويسرا سنة 1887م، غير أن السلطات الفرنسية ـ وكعادتها ـ خنقت أنفاس الجريدة وحالت دون نشر تلك الوثائق الهامة.

وجهة نظر رجال الحركة الوطنية في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى:

تعرض محمد السعيد الزاهري ـ أيضا ـ في مقال آخر بعنوان:(أين تذهب أموالنا) بشيء من التفصيل إلى نشاط اليهود في أرض الجزائر وبإشراف المحتل الفرنسي نفسه، ويتمثل ذلك النشاط في اجتماع اليهود بـ(مركز العساكر والبحرية) المتواجد في الجزائر دعت إليه شخصية معروفة تدعى: المحامي اليهودي(ناطان لابيرن).

عرف محمد السعيد الزاهري في مقدمة هذا المقال بجمعية(كسيرن هايسود) بأنها الخزانة المعتمدة من تبرعات اليهود والمستمرة والتي هدفها هو(بناء معهد سليمان، وتأسيس مملكة اليهود، وعلى الأقل لإعانة مستعمري أرض الميعاد)[10]. ثم انتقل إلى ذكر أشهر الجمعيات اليهودية ذيوعا وهي جمعية:(الاتحاد الإسرائيلي) التي أسسها رجل يدعى:(كريميو) المشهور بمحاولاته المتكررة والجادة في تنشيط وإحياء قانون أصدرته فرنسا تميز بآثاره السلبية على الجزائريين وهو قانون التجنس. وبعد ذلك وجه الزاهري نداء قويا لضمير الشعب الجزائري يخبره فيه بمجيء المحامي اليهودي (ناطان لابيرن) إلى أرض الجزائر، مفوضا من لدن جمعية (كسيرن هايسود). جاء ليدعو بحرارة إخوانه الإسرائيليين لكي يعينوا إخوانهم بالمال في أرض الميعاد، وكان نداء الزاهري بأسلوب إنكاري على تخاذل الجزائريين أمام تحركات اليهود في أرض الجزائر بقوله:(فليتدبر إخواننا وزعماؤنا، وليتأملوا في نشاط اليهود ووطنيتهم)[11]. وبعد هذا النداء ذكرهم بكيفية اختطاف اليهود لأرض فلسطين من بين أيدي العرب جميعا رغم ما عرف عن اليهود من تفرق وتشتت في العالم، وبعدما (ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله)[12] ولسنين طويلة. واستمر المقال يذكّر الشعب الجزائري بأحقية العرب في أرض فلسطين وبكون اليهود من الظالمين المعتدين على ممتلكات ومقدسات الأمة الإسلامية، جاعلا استعمار اليهود لفلسطين لا يختلف أبدا عن بقية الاستعمار الأوروبي الجاثم على صدر الأمة العربية والإسلامية. وانتهى المقال إلى خلاصة فاصلة وجريئة، تكشف تأثر رواد الحركة الوطنية بالأحداث التي تمر بها الأمة الإسلامية ومنها فلسطين قال الزاهري: (لا نرضى أن تكون الأموال التي اختلسوها منا ومن غيرنا بالربا وبالوجوه المعلومة أساسا لبناء ملكهم، ونفوذ سياستهم على إخواننا المسلمين أهالي فلسطين الحقيقيين)[13].

لعل هذه العبارة دعوة جادة من هذا الأديب إلى الثورة على اليهود في الجزائر آنذاك، وسلاحها المقاطعة الاقتصادية كما أشار إلى ذلك في غير هذا الموضع، وبالضبط في رسالة بعث بها إلى رئيس الطائفة اليهودية في الشمال الإفريقي قائلا له: (مع أنكم تعلمون أنه لو اعتصب المسلمون عليكم وقطعوا معاملاتكم لرجعتم كلكم إلى الحالة التي تستحقونها والتي تليق بكم لأنكم أسأتم لمن أحسن إليكم ومن كان سببا في غناكم وتحريركم)[14].

وكما لم يتوان محمد الزاهري في إغلاظ القول إلى كل من يسعى في أرض الجزائر لتغليب اليهود على المسلمين في فلسطين بدعم مادي أو معنوي، فإنه لم يبخل على الجزائريين ببعض أسماء الذين جاهروا لهم بالسوء للجزائريين خاصة وللمسلمين عامة، ومن هذه الأسماء: لبيرن، هانري، شارل أبو الخير، الشبيب بن هيمون كاتب الشبيبة الاشتراكية. وكذلك لم يخف رأيه المبطن بشيء من التهديد والوعيد قائلا: (فلسطين في أرض عربية إسلامية، وإن أموالنا وأتعابنا وأرواحنا التي أزهقت في الحروب الأخيرة لا تذهب وراء سعي المرابين).[15]

المقاطعة الاقتصادية خيار استراتيجي :

أما في رسالة بعث بها هذا الأديب إلى رئيس الطائفة اليهودية فقد استطاع أن يكشف فيها بصدق عن الحالة المزرية التي عاشها الشعب الجزائري في ظل الاحتلال. وقد نشر هذه الرسالة في جريدته الأولى(الجزائر) عام 1925م، ونظرا لأهمية الموضوع فقد أعاد نشرها في جريدته الثانية (البرق) عام 1927م في العدد الخامس عشر منها. واختيار السعيد الزاهري لشخصية الراهب (فريدمان) **** قد يدلنا على أن الحركة الوطنية وقتئذ في مستوى التحدي وتحمل المسئولية. كما يدل أيضا على أن الجزائر على موعد مع نهضة حقيقية، يحمل مشعلها رواد تسلحوا بالعلم والعمل معا.

لقد احتوت هذه الرّسالة على ثلاث فقرات؛ تخللها مضمون تاريخي، وتحليل واقعي بتركيز كبير، وبعد في النظر، رغم أنّها لم تكن بالطويلة ولا بالموجزة. بدأ الفقرة الأولى فيها بنداء غرضه التحدي، وختمها بتحذير ملؤه الاعتزاز والكبرياء، وما بين النداء والتحدي كان مضمونا تاريخيا، ذكّر فيه الزاهري ذلك الراهب بالزمن الغابر لليهود في ظل الأمم العيسوية، وحالهم السّعيد في كنف الأمة الجزائرية حاضرا، وكيف تنكر اليهود اليوم للجزائريين، حيث استعبدوا أهلها وسخروا منهم جميعا وكان ذلك في الفقرة الأولى. أما الفقرة الثانية فكانت عبارة عن تحليل واقعي لأسباب رفاهية هؤلاء اليهود في الجزائر من جهة وتعاسة الجزائريين في أرضهم من جهة أخرى. وفي الفقرة الأخيرة رأى هذا الأديب أن أرواح الجزائريين عزيزة لم تمت رغم القهر والظلم اللذين تعرضوا له من قبل اليهود، وقد نبّه في الوقت نفسه وحذر تلك الطائفة من التدخل في شؤون الجزائريين السياسية والاقتصادية، ثم وضع لهم شروط التعايش السلمي الذي يكفل الحقوق، ويحفظ الواجبات بين اليهود الدخلاء والجزائريين أصحاب الأرض.

لمّح الزاهري في ختام تلك الرّسالة إلى ضرورة لجوء الجزائريين إلى خيار المقاطعة الاقتصادية للسلع اليهودية من أجل ضرب مكانتهم الاقتصادية حيث قال: (مع أنكم تعلمون أنه لو اعتصب المسلمون عليكم، وقطعوا معاملاتكم رجعتم كلكم إلى الحالة التي تستحقونها والتي تليق بكم لأنكم أسأتم لمن أحسن إليكم، ومن كان سببا في غناكم وتحريركم)[16]. أما عن الشروط التي ذكرها السعيد الزاهري للعيش بسلام، فأملاها عليه حال الجزائريين المزري؛ إذ وصل بهم الأمر إلى مستوى معيشة البهائم في نظر اليهود. ومجمل شروط التعايش السلمي بين اليهود والجزائريين فملخصها كما يأتي:

- ألا يتدخل اليهود في شؤون الجزائريين السياسية والاقتصادية.
- أن يرفعوا الأذى عن الجزائريين، وأن يعطوا الشعب حقه.
- ألا يتعصب اليهود ضد الجزائريين.

وختم السعيد الزاهري هذه الرسالة بدعوة وتذكير هما:(فلا تتعصبوا ولا تتكاتفوا، وإلا فالتعصب يجلب التعصب، ولا تنسوا أن الأغلبية لنا، ونحن أحق بالسيادة فيها

منكم، فانتبه أيها الراهب ونبه إخوانك لعلهم يرجعون، والسّلام على من اتبع الهدى)[17].

الخلاصة

والخلاصة أن:

- اهتمام علماء الجزائر وأدبائها بالقضية الفلسطينية وما كانت تتعرض له كان مبكرا.

- ما كان ينقص هؤلاء الأدباء هو غموض في صياغة المصطلح بين اليهودي والصهيوني ومع ذلك فإن كتاباتهم كانت تؤدي دورا رياديا في التنبيه لهذه القضية مقارنة بما كان يكتب آنذاك في المشرق وقد رأينا تعليق الزاهري على ما كتب في مجلة المنار(وما أدراك ما مجلة المنار) بين مفكري الصهيونية وبين نظرائهم من إخواننا المشارقة آنذاك.

- ولقد امتد هذا التفكير حول القضية الفلسطينية بعد الحرب العالمية الثانية إلى ما نجده في كتابات محمد البشير الإبراهيمي في جريدة البصائر الثانية وإلى أحداث الثورة التحريرية.

هوامش المادّة العلمية:

*عالم سوري ولد في دمشق عام 1886م، رحل إلى الكثير من مدن العالم العربي والإسلامي طلبا للمزيد من العلم، منها اسطنبول، أصدر مجلة الفتح، والزهراء، توفي عام 1969م.

1. محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ط1، المطبعة التونسية، تونس،1926م.
2. ينظر، محمد بن سمينة:(من أعلام الجزائر، محمد السعيد الزاهري)، البصائر عهد الاستقلال، ع 408، من 8 إلى 14 سبتمبر 2008م، ص 21.

** من أشهر علماء جامع الزيتونة.

***من شخصيات الجمعية التي نالها قلم الزاهري محمد البشير الإبراهيمي وتوفيق المدني ومبارك الميلي.

3. محمد بن سمينة:(من أعلام الجزائر، محمد السعيد الزاهري)، البصائر عهد الاستقلال، ع 408، من 8 إلى 14 سبتمبر 2008م، ص .22
4. المرجع نفسه، ص ن.
5. الراصد:(الصهيونية) البرق، عدد 20 ، الاثنين 24 جويلية 1927 م. ص 2/1.
6. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
7. المصدر نفسه، ص ن.

8. ينظر المصدر نفسه. ص ن.
****هو المحامي Emmanuel Carasso يهودي تركي، نشأ وسط عائلة ذات نفوذ, كان من أوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة وكان مسئولاً أمام جميعة الاتحاد والترقي عن إثارة الشغب وتحريضه ضد السلطان عبد الحميد الثاني، لعب دوراً هاماً في احتلال إيطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا، توفي عام 1934م.
9. المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
10. الراصد:(أين تذهب أموالنا) البرق ، عدد 15، بتاريخ 5 محرم الحرام 1345هـ الموافق لـ 20 جوان 1927م. ص 1.
11. المصدر نفسه. الصفحة نفسها.
12. سورة البقرة آية 61.
13. الراصد:(أين تذهب أموالنا)، البرق، مصدر سابق، ص ن.
14. ابن الجزائر:(رسالة مفتوحة إلى المعلم فريدمان رئيس الطائفة اليهودية في الشمال الإفريقي)، البرق، عدد 18، 11 جويلية 1927م. ص 3/2.
15. الراصد:(أين تذهب أموالنا)، البرق، مصدر سابق، ص ن.
***** راهب مسؤول عن النشاط اليهودي على مستوى الشمال الإفريقي.
16. ابن الجزائر:(رسالة مفتوحة إلى المعلم فريدمان رئيس الطائفة اليهودية في الشمال الإفريقي)، البرق، عدد 18،. ص 3/2.
17. المصدر نفسه، الصفحة نفسها .